مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد: 04 العدد: 02 سبتمبر 2021 ص ص: 486-509
ر ت م د (ISSN): 2602-618X / ر ت م د إ (E-ISSN): 2710-8031

البعد الاقتصادي للصدام العثماني الأوربي في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 10هـ/ 16م

Economic dimension of the Ottoman-European clash in the Western Mediterranean during the AH 10th / AD 16th century

سماحي جواد♦

مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا

جامعة ابن خلدون- تيارت djouad.smahi@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2021/04/29 تاريخ القبول: 2021/07/13 تاريخ النشر: 2021/09/30

الملخص باللغة العربية: يثير هذا المقال موضوعا ذا صلة بحلقة من حلقات الصراع بين القوى الفاعلة في الفضاء المتوسطي خلال القرن السادس عشر، إذ لا يُغفل أن حوض المتوسط الغربي منذ نهاية القرن الخامس عشر اعتبر فضاءً مركزيا وفعليا لصراع ساخن ومحتدم بين الشرق والغرب، بحيث مثلت الدولة العثمانية العالم الإسلامي الذي كان يشهد وضعا معقدا من الضعف والشتات ومثل الغرب تلك القوى الأوربية المنتعشة من مخرجات النهضة وحركة الكشوف الجغرافية والتقدم الحاصل على حساب دولة المسلمين في جنوب غرب أوروبا؛ وعلى رأسها قوى شبه الجزيرة الإيبيرية. وقد اتخذ هذا الصدام أوجها متعددة؛ انطلاقا منها يمكن وصفه بالتنافس الإستراتيجي ذو الخلفية السياسية والدينية والاقتصادية، اعتبر المنطلق الاقتصادي التجاري فيها عاملا ملحا لخوض غمار صراع مرير على مدار القرن السادس عشر، اضطلعت ضفتي المتوسط الغربي بلعب أدواره بالتأثير والتأثر وكانت ميدانا حقيقيا لمعطيات نهاية العصور الوسطى وبداية الفترة الحديثة. وبقدر ما برزت بلدان أوربا الغربية كفاعل في الساحة الدولية والإقليمية في هذه الحقبة من التاريخ، استطاعت الدولة العثمانية أن تقحم نفسها وتفرض منطق الندية ضمن الفضاءات الحساسة التي تدير سياسة العالم الحديث في مختلف مناحيها وفي الشق الاستراتيجي والاقتصادي بوجه خاص، ولم يكن من السهل إدارة دواليب هذه المجابهة للتكافؤ تارة ولعدة اعتبارات تارة أخرى، بل كانت صعبة تخضع لرهان الأولويات ومنطق القوة والتحالفات.

الكلمات المفتاحية: الصدام؛ العثماني؛ بلدان أوروبا؛ البحر المتوسط؛ القرن16م.

♦ **سماحي جواد**

Abstract: This study presents a topic related to a cycle of conflict between the Ottoman Empire and the European states . This clash has taken on many facets, from which it can be described as strategic competition with a political, religious and economic background, in which the commercial economic premise was seen as an urgent factor in a bitter conflict throughout the sixteenth century, in which the two shores of the Western Mediterranean played their roles with influence and influence and were a real field of the data of the end of the Middle Ages and the beginning of the modern period. While the economic aspect of this competition was prominent, it was not easy to manage the wheels of this confrontation of parity at times and for several other considerations, but rather difficult to bet priorities and the logic of power and alliances.

Keywords: Clash; rivalry; Ottoman; Countries of Europe; 16th century.

مقدمة:

ما يزال القرن السادس عشر من تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط عامة وجزئه الغربي بصورة خاصة يمثل حقبة تاريخية هامة تسترعي اهتمام الباحثين وجهود المختصين بالدراسة، بالنظر إلى جملة الأحداث والتفاعلات الحاصلة فيها، حتى وسم هذا القرن بقرن التبدلات الكبرى، إذ ليس من الصدفة أن نجد هذا المجال الجغرافي يشهد إقبالا غير مسبوق من طرف قوى متعددة، مختلفة الأهداف والمنطلقات، تضاربت مصالحها وأشعل التنافس فيما بينها، حيث أعطى الوفاق المقدس الحاصل في إسبانيا سانحة الاندفاع بالنسبة للطرف الأوروبي المسيحي تحت قيادة وراية واحدة تدعمها الملكية المتصالحة مع البابوية بمنظور الأحقية في الهيمنة وملاحقة الأعداء التقليديين في حين انطلق التحرك العثماني الإسلامي إلى هذا الفضاء وهو ما أرجعه البعض إلى تشبع توسعات السلاطين في جهة الشرق بعد حسم أمر منافسيهم المماليك، ويذهب آخرون بوصف ذلك بالتحرك الإستراتيجي الاستشرافي لحماية مصالح العالم الإسلامي والحلول المشروع في بلاد الخلافة السابقة.

وقد يبدو لنا أن الدافع الديني كان قويا في إشعال فتيل هذا الصدام، غير أنه لا يمكننا إلغاء دوافع أخرى كانت وراء تحريك الجيوش وحشد الإمكانات نجد من بينها الدافع الاقتصادي، و في ظل هذا الواقع الذي أفضى صراعا مريرا جندت لأجله مقدرات بقدر أمده

وأهمية خوضه، بين طرفين متمايزين تمثلا في العثمانيين القادمين من جهة شرق المتوسط والأوربيين في ضفته الشمالية، وردت إشكالية بحثنا على هذا النحو: إلى أي مدى كان المبرر الاقتصادي وجها فرض نفسه في الصدام العثماني الأوروبي بالجزء الغربي من المتوسط طيلة القرن السادس عشر؟ وما هي الملامح المترجمة لهذا البعد كشق تنافسي أسهم في بلورة وضع المتوسط الغربي على أنه منطقة حيوية جلبت إليها مطامح القوى ذات الفاعلية الواسعة آنذاك ؟

1- واقع التجارة الدولية في حوض المتوسط قبل حركة الكشوف الجغرافية الإيبيرية:

ظلت التجارة العالمية بين الشرق والغرب طيلة العصور الوسطى تسلك طرقا برية وبحرية معلومة، تطل في جزئها الشرقي على المحيط الهندي، وتصل بضاعتها وموادها المختلفة إلى الأسواق الأوروبية عبر طرق المتوسط، وراح سلاطين المماليك يملكون زمام هذه الطرق ويديرون دواليبها حتى نهاية العصور الوسطى ومطلع القرن السادس عشر، وهو ما مكنهم من جني أرباح وعائدات كبيرة نتيجة الضرائب التي فرضوها، ولتحكمهم في حركة النقل والتسويق لبعض البضائع[1]، وكان في بوابة الجهة الغربية من المتوسط حكام الإمارات الإيطالية خصوصا البنادقة والجنويون يتحكمون في نقل البضائع إلى البلدان الأوربية، مما اضطرهم على مهادنة المماليك والخضوع بدعوى المصلحة رغم التوتر أحيانا في العلاقات[2]، وظل الأمر كذلك إلى غاية وصول العثمانيين إلى المنطقة وتحكمهم فيها.

وفي البحر المتوسط لم تكن هناك طرق مباشرة بين جزئيه الشرقي والغربي، إنما كانت تخرج السفن من موانئ المدن الإيطالية متجهة غربا نحو غرب أوربا وشرقا إلى مصر والشام وبلاد الأناضول[3] ، وكانت قبرص أهم مركز تجاري للبندقية بعد 1453م، لما ميزها كطريق تجاري بحري إلى الشام وآسيا الصغرى.

كما كان هناك طريق يسلكه الأسطول الجنوي في غرب المتوسط يتجه إلى تونس ويسير على طول ساحل إفريقيا شرقا حتى الإسكندرية وموانئ الشام، وغربا باتجاه غرب إفريقيا حتى يعبر مضيق جبل طارق، وفي الجهة الغربية من المتوسط كان طريق برشلونة أهم

1- فاروق عثمان أباظة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الطبعة الثانية، دار المعارف، الإسكندرية، 1994، ص ص8-7.

2- حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، الطبعة الثانية، مطابع حجازي، مصر، 1938، ص26.

3- نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1973، ص 178.

طريق تجاري تلتقي فيه السفن الوافدة من إيطاليا وفرنسا إلى إسبانيا، حيث تتميز بوفرة مستودعات السلع والمخازن وأحواض بناء وترميم السفن[4].

ويرى البعض أن استيلاء الأتراك عن بعض المراكز في شرقي وشمال شرق المتوسط قد أدى إلى توقف النشاط التجاري لجنوة في المنطقة، وذلك بعد إخضاع المماليك في مصر والشام وهو ما أثر سلبا على النشاط التجاري وأدى إلى تضرره لدى بعض الإمارات الايطالية[5].

ومما لا شك فيه أن العلاقات الجنوية العثمانيه في هذه الفترة كانت تقوم على أساس المصلحة المتبادلة، فقد كان الجنويون براغماتيين في تعاملهم مع الأتراك، وهو ما يؤكده طغيان المصالح التجارية وحرص الطرفين على عدم التفريط في هذه المصالح منذ دخول القسطنطينية تحت أيد الأتراك 1453[6]. كما أنه لا يمكن إنكار أن الأتراك كانوا في نظر الغرب المسيحي أعداءً وكفارا، ولكن الحقيقة التي لا مفر منها هي كونهم بسطوا سلطانهم على أراضٍ شاسعة جذبت إليها الكثير من التجار الأوربيين، وموجز القول هنا أن العلاقات التركية الجنوية خاصة كانت تمليها المصالح المالية والمنفعة المشتركة دون أن يكون للعامل الديني فيها الأثر الكبير[7].

غير أنه يجمع المؤرخون أن الجزء الغربي من المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر حدثت به تغيرات جذرية واسعة النطاق في إسبانيا والبرتغال[8] وأوربا

4- نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص184.

5- كات فيليت، التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، ترجمة أيمن الأرمانزي، الطبعة الأولى، العبيكان للنشر والتوزيع، السعودية، 2004، ص254.

6- المرجع نفسه، ص 258.

7- نفسه، ص285.

8- بالموازاة مع التواجد العثماني في المتوسط الغربي انشغل السلاطين في رصد العناية والتأهب لمواجهة البرتغاليين والتصدي لخطرهم؛ حيث تفاقم مد توسعاتهم إلى والبحر الأحمر والمشرق الإسلامي منذ نجاح رحلاتهم الاستكشافية مع نهاية القرن الخامس عشر، في مقابل ضعف المماليك في التعرض لهذا التهديد. وقد كان المراد لدى البرتغاليين من ذلك هو السيطرة على الدول العربية التجارية مرة واحدة وللأبد عن طريق احتلال الممرات والمضائق الحيوية "عدن وهرمز وملقا"، وتعطيل تجارة المسلمين وإصابتها بالركود، وهذا الواقع المحتوم جعل العثمانيين يحملون عبء الحيلولة أمام استمرار هذا التهديد كخطر سياسي واقتصادي وتهديد ديني لبلاد الشرق المشرق الإسلامي. للمزيد أنظر: محمد علي عدوان- الصراع العثماني البرتغالي البحري في القرن السادس عشر، مجلة البحوث الاجتماعية والإنسانة، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، العدد 51، ديسمبر 2019، ص ص43-57.

الغربية، أثرت على المراكز الأساسية التي اختصت بالتجارة العالمية في العصور الوسطى، في غرب آسيا والشرقين الأدنى والأقصى وغرب أوروبا، حيث نجحت شعوب أوروبا تلك التي أطلقت رحلاتها عبر المحيط الأطلسي، وتمكنت أخيرا من إيجاد طريقها إلى الشرق بحرا دون وساطة مصر والشام وأسيا الصغرى، وهو ما يشكل نهاية العصور الوسطى في عالم التجارة[9].

2- الكشوفات الجغرافية:

بدأ المجتمع الغربي يعيش حالة مستجدة، تحصيلية وتكميلية لما أفرزه عصر النهضة، فكانت الكشوف الجغرافية محاولة من العنصر الأوروبي المدعوم بالأنظمة السياسية الحاكمة والكنيسة، إيجاد طرق تؤدي لوصول إلى جزر التوابل بدل ثغور المتوسط التي أحكم العثمانيون عليها قبضتهم[10]. وكانت هذه الحركة البحرية الأوروبية التي انطلقت في أواخر القرن 15م واستمر الجزء الأكبر منها في القرن 16م أهم نتيجة للنهضة الأوروبية[11].

كما ترتبط الكشوفات الجغرافية المنطلقة من شبه الجزيرة الأيبيرية مع نهاية القرن 15م ارتباطا وثيقا بالحوض الغربي من المتوسط، لكونها انطلقت من سواحله من جهة، ولأنها كانت تهدف إلى إيجاد ما يلبي رغباتها الاقتصادية والتوسعية من جهة أخرى، حيث لم تسعفها الظروف في هذه المناطق مع بداية القرن 16م في تحقيق مآربها، وأمام صعوبة المأمورية في المتوسط نتيجة وجود قوة منافسة مُربِكة وهي الإمبراطورية العثمانية، كان إطلاق مبادرات رحلات استكشافية خطة بديلة وإلزامية لتحقيق احتياجاتها الجامحة في قيادة العالم الأوروبي المسيحي إلى التحرك خارج القارة الأوربية، ولإحراز امتدادات جديدة للإمبراطورية الإسبانية، ومناطق نفوذ تزخر بالمواد المتنوعة والضرورية.

والمتوسط الغربي منذ مطلع القرن السادس عشر كان ساحة لمعركة سياسيه ودينيه بامتياز، خاضتها الإمبراطوريان العثمانية، والإسبانية باعتبارها من بقايا السلالة النمساوية الهابسبورغ، كما لا يمكن إنكار الأهداف الاقتصادية للجهود الإسبانية في

9- شمس الدين الكيلاني، الإسلام وأوربا في القرن السادس عشر"الحرب والتجارة، مجلة الاجتهاد، لبنان، العدد36، 1997، ص ص10-11.

10- مصطفى أبو لقمة والهادي الأعور، الجغرافيا البحرية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1999، ص43.

11- محمد عبيد بطي، الصراع العثماني البرتغالي في القرن السادس عشر، الطبعة الثانية، مركز الدراسات والوثائق، الإمارات العربية المتحدة، 2013، ص36.

توسيع حدودها باحتلال سبتة ومليلية وسواحل الجزائر وتونس وطرابلس، لغرض إقامة مراكز تجارية وحماية منافذ وطرق السلع من خطر القراصنة[12].

3- الدافع الاقتصادي في حركة الكشوف الجغرافية الأوربية:

فضلا عن دوافع مختلفة لحركة الكشوف الجغرافية الأوروبية من رغبه البحارة المغامرين في ركوب البحر، والحماس لدى الأنظمة السياسية والبلاطات الملكية، وترغيب الكنيسة الكاثوليكية في هذه الحركة بدعوى فتح مزيد من البلدان وإعلاء مجد المسيحية، فإن الأسباب الاقتصادية كانت دافعا قويا لهذه العمليات، بالنظر إلى الأهمية الاستراتيجية للتجارة مع الشرق والطلب المتزايد على التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الشرق، كل هذا في ظل تبدلات وتغيرات بدأت بسيطرة العثمانيين المسلمين على الإمبراطورية البيزنطية بإخضاع القسطنطينية 1453م، ومن ثمة اعتمادهم أسلوب التجارة المغلقة بالحيلولة دون حرية استعمال الممرات والموانئ التي كان الأوروبيون ينشطون بها في نقل السلع، فاستكانت تجارتهم وتعطلت، وهو ما دفعهم إلى السعي لإيجاد حلول لهذا الخضوع والانطلاق في البحث عن ممرات وطرق بديلة[13].

وأمام ضعف أمر المسلمين في الأندلس وتمكن الأسبان والبرتغاليين من إنهاء وجودهم السياسي نهائيا سنة1492م، استمر الاتجاه إلى ملاحقتهم صوب الديار التي فروا إليها في الضفة المقابلة حيث المسلمين مثلهم، تمكنوا كذلك من السيطرة على بعض المراكز على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط من شمال بلاد المغرب، مثل مليلية ووهران وغيرها، وكذا بعض المناطق من سواحل الأطلسي، وبعد أن استقروا بهذه النقاط الهامة ظهرت عندهم رغبة التوسع والتوغل أكثر، فكان خيار معرفة طرق تجارية غير الطرق التي يسيطر عليها المسلمين، بحيث تكون الاستطاعة في الوصول إلى الشرق ومنافسه المسلمين فضلا عن حرية ممارسه التجارة[14].

ثم إن تقويض دولة الأندلس الإسلامية وانهيار النظامين الاجتماعي والاقتصادي الإسلامي في بلاد الأسبان وما تلاه من عمليات الملاحقة، قد وضع إسبانيا أمام مشكل اقتصادي رهيب، باعتبار ما كانت تمثله هذه الفئة الواسعة من السكان كدعامة للاقتصاد وخلايا

12- مانويل فاسكيث، تصورات البحر الأبيض المتوسط "المتوسط الإسباني"، منشورات تلاسا، لبنان، 2003، ص17.

13- مفيد صالح باشا، تاريخ البحر وملاحمه، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار طلاس للنشر والتوزيع، سوريا، 1990، ص119-120.

14- محمود شاكر، الكشوف الجغرافية دوافعها وحقيقتها، الطبعة الأولى، منشورات المكتب الإسلامي، لبنان، 1973، ص 25.

العمل، حيث حصل تعطل الإنتاج بصفة تامة وانعدمت وسائل التصنيع، وأصبحت التجارة الخارجية بمفهوم التصدير والاستيراد غائبة، وفي خضم هذه الحالة لم يبق للأسبان من سبيل في تجاوز هذه المشاكل والحاجة الماسة للمواد والأموال، إلا خيار اكتساح المغرب العربي وإخضاعه لحكمهم، وهو الخيار الذي يمكنهم من وضع حل للأزمة الخانقة، بالنظر إلى ما تتمتع به هذه البلاد من وفرة في الثروات والمزارع والغابات، وتنوع في الثروة الحيوانية وما ينتج عن هذا من مواد كالأخشاب والجلود والأصواف[15].

كما تجدر الإشارة إلى كون الأسبان والبرتغاليين من أوائل الأطراف التي حرمت من التجارة حول البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، في وقت سيطرة المسلمين الأوائل وبعدهم العثمانيين الأتراك على هذه المناطق، وبهذه السيطرة التحكمية على البحار ومراكز التجارة الدولية الهامة من قبل المسلمين، لم يعد في وسع هاتين القوتين القيام بالتجارة البحرية مع البنادقة والجينويين وغيرهم من الأطراف الأوربية التي تحرك العمليات التجارية، وهو ما طرح عندهم مشكلة التموين بالمواد المختلفة والضرورية وتعرقل مصالحهم التجارية والاقتصادية[16].

مع هذا كله فإنه قد توافرت أوضاع سياسية أنتجها عصر النهضة بمخرجاته وتأثيراته على الحياة الأوربية كلها، أدت إلى حالة من الانتعاش العام خلاف فترة العصور الوسيطة، فزاد عدد السكان ونمت معه الحاجة والطلب على المنتجات والمعادن النفيسة، وأصبحت التجارة نشاطا اقتصاديا رائجا ومُدرا، وهو ما ضاعف من أهمية الممرات ومحطات النقل البحري، فكانت هذه الرحلات البحرية خيارا سياسيا تفرضه الحاجة الاقتصادية وتدعمه البابوبة[17].

4- أهمية الممرات البحرية والمراكز الإستراتيجية في الصراع:

شكلت المعطيات التي ذكرناها أرضية وواقعا لوضع عام ساد الضفة الجنوبية من أوربا الغربية تحديدا، دفعت بزعامتها ممثلة في إسبانيا والبرتغال إلى التحرك خارج حدودهما السياسية، قصد البحث عن موارد مالية وإمكانيات بديلة فيما تعلق بالمواد الأولية والطرق التجارية. فاتجه البرتغاليون إلى سواحل الأطلسي لاحتلال المراكز التجارية وإحكام القبضة عليها، ومنها الانطلاق عبر السواحل الإفريقية الغربية مرورا بالمحيط

15- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 79.

16- ولي شيرين، تاريخ أوربا السياسي والثقافي بخطوطه العريضة، ترجمة نبيل أبو منشار، لبنان، د.ت، ص22.

17- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعة، مصر، 2000، ص96.

الهندي وصولا إلى الشرق الأقصى أين مصدر تجارة التوابل والحرير، كما اتجه الأسبان بعد وصولهم العالم الجديد ومناطق الذهب بالقارة الأمريكية، إلى سواحل شمال إفريقيا قصد توسيع هيمنتهم[18].

وبوقوفنا على خلفيات الصراع العامة نجد أن التعصب الديني ومن ورائه السيادة الدولية عاملان أساسيان دفعا بالصراع البحري بين المسيحية والإسلام، أو بين الدولة العثمانية وأوروبا نحو السواحل الجنوبية للحوض الغربي من المتوسط، وكان هذا التنافس يستهدف السيادة على هذا الجزء الإستراتيجي من المتوسط، فاضطلعت بلدان الشمال الأفريقي بالقسط الأوفر من هذا الصراع، بحيث اشتهرت مدن وثغور بلدان المغرب من تونس والجزائر وطرابلس، والمغرب الأقصى بكونها قاعدة الأساطيل الحربية بالنظر إلى فاعليتها في هذه الصراع المرير. ونجد أن هذا الوضع خلق لدى الدول الأوروبية اتجاها إلى التكتل تحت لواء محاربة هذه المراكز، ومحاولة إطالة عرقلة نشاطها البحري الذي تزاوله في ميدان الصراع أو التجارة والملاحة، فكانت مدن وهران والجزائر وبجاية وتونس وطرابلس أول ما تعرض من مدن الشمال الأفريقي لغزوات وحملات الأسبان[19].

وقد كانت الخطة الأوروبية بقيادة الأسبان تضع في الحسبان ما يوفره الاستيلاء على بلاد المغرب، من إحكام اليد على الجزء الغربي من المتوسط ومنه إلى العالم الجديد، وتأمين هذا الفضاء بالقضاء على القرصنة البحرية الإسلامية، التي نشأت وتفاقمت تأثيراتها على ضفاف المتوسط، ومنه يصبح الحوض الغربي بحرا إسبانيا بحتا سيما وأن الأسبان يملكون الساحل الجنوبي الغربي من إيطاليا وما به من جزر، كصقلية وسردينيا وكورسيكا والبالیار، ما من شأنه تمكين القدرة على تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال وجنوب الجزء الغربي من المتوسط[20].

في حين كان اهتمام العثمانيين بهذا القسم الإستراتيجي من العالم ينطلق من اعتبارات عدة، فسكان الضفة الجنوبية من هذا الجزء هم إخوان في الدين، ومنطقة الشمال الإفريقي هي ذلك الشريط الخصب المفتوح على المياه، حيث يمتد من طرابلس إلى طنجة، ناهيك عن العدد الكبير للموانئ والمرافئ الطبيعية المثالية التي تسمح بخدمة

18- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512 -1543، الطبعة الأولى، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص127.

19- محمد مصطفى بازامه، ليبيا في عشرين سنة من حكم الأسبان 1510-1530م، الفرجاني للنشر، ليبيا، 1965، ص20.

20- أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص80.

الأهداف المختلفة، تجارية اقتصادية وعسكرية إستراتيجية[21]، وإذا تتبعنا مسار الدولة العثمانية نلمس توجه سلاطينها مع بداية النصف الثاني من القرن 15م من تحقيق القوة الإقليمية إلى بناء القوة العالمية، ذلك أن الحصول على القسطنطينية 1453م بما كانت تمثله من رمزية سيادية، كعاصمة للعالم المتوسطي بحوضيه الشرقي والغربي وضفتيه الشمالية والجنوبية، يعتبر حدثا ومنطلقا مؤسسا للتوجه العثماني البحري في المتوسط خاصة خلال الفترة المفصلية وهي فترة القرن السادس عشر[22].

ومع اكتشاف رأس الرجاء الصالح كطريق جديد هدد التجارة في شرق المتوسط بتحويلها إلى عبر المحيطين الهندي والأطلسي، أصبح من الضروري بالنسبة للدولة العثمانية أن تهتم بحماية مصالحها التجارية وأن تحافظ على مساهمة الطرق التي تخضع لها في التجارة بين الشرق والغرب، تحاشيا للآثار الناجمة عن هذا التحول، وسعيا منها لإيجاد سبل تسمح باستمرار توفير الموارد المالية التي اعتبرت عائدات التجارة مصدرها الأساسي[23] منذ 1453م، بعد أن غدت وسيطا تجاريا إجباريا بين الهند والغرب وكانت أسواقها مصدرا رئيسيا لمواد ذات أهمية عالمية كالقمح والأرز والفول وغيرها[24].

كما أدرك العثمانيون بعد تثبيت أقدامهم في قسم واسع من جهة المتوسط الشرقي، وتكلل جهود سلاطينهم في حيازة المضائق المحورية، ما للقوة البحرية من الأهمية، وكانت هذه الأفضلية حتى في مناطق التنافس الأخرى خارج المتوسط كمضيق هرمز الذي تداعت إليه أطماع منافسيهم البرتغاليين مطلع القرن16م[25]، ومضت نفس العناية في المتوسط الغربي حيث أن جمهورية البندقية كانت واقعة لهم بالمرصاد على مدخل شرق المتوسط، فوجهوا همتهم وركزوا حرصهم للعناية بالأسطول واستولوا على جزر بحر إيجة، خاصة تلك القريبة من مدخل المضائق، ثم ظل العمل على إخضاع الخصوم البنادقة

21- جون جوليوس نورويش، الأبيض المتوسط تاريخ بحر ليس كمثله بحر، ترجمة طلعت الشايب، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، مصر، 2015، ص344.

22- عبد الجليل التميمي، العثمانيون والبحر الأبيض المتوسط، العثمانيون والعالم المتوسطي، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2003، ص ص20-21.

23- وجيه كوثراني، تكون الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي في العصر الحديث، موسوعة تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب، الطبعة الأولى، المجمع الإسلامي للتقريب بين المذاهب، إيران، 2010، ص264.

24- فرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، ترجمة مروان أبي سمرا، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي، 1993، ص125.

25- شوقي الجمل، هرمز والصراع الإسلامي الصليبي في بداية القرن السادس عشر، مجلة الوثيقة، البحرين، العدد27، 1995، ص88.

حتى اضطروا في نهاية القرن 15م إلى دفع الجزية، وقد قوي مركز الأتراك في البحر المتوسط نتيجة جهود السلاطين المتواصلة منذ محمد الفاتح، لأجل أن تصبح السيادة البحرية العثمانية غير مقصورة على شرقي البحر المتوسط بل تتجاوزه الى جزئه الغربي أيضا[26].

ونجد أن الميناء والمضيق مثلا نقطة أساسية ومحورية في أولويات الصراع القائم بين العثمانيين والأوربيين في جهة المتوسط الغربي خلال القرن16م[27]، حيث أن الأطماع الاقتصادية كانت وراء عمليات التوسع التي قادتها البلدان الأوربية على سواحل المغرب العربي منطلقة من خلفية التحكم في الموانئ ومراقبة طرق التجارة وتعويض الوساطة العربية في عمليات التجارة البحرية[28]، وفي المقابل فإن التحرك العثماني المضاد جاء استجابة لاهتمامات شتى منها الاقتصادية قصد الحصول على نصيب من تجارة الشرق بالبحث عن منافذ تمكن من ذلك[29].

5- مراكز الصدام وأهميتها الاقتصادية:

بتتبعنا للسياسة الإسبانية في تعاطيها مع المسلمين المهجرين والفارين من الإمارات الأندلسية منذ معاهدة تسليم غرناطة، نجد جهودا متواصلة في ملاحقتهم ومحاولة النيل منهم، ذلك أن هؤلاء مثلوا عددا كبيرا وشريحة واسعة أخذت منذ وصولها واستقرارها في الساحل المقابل من شمال إفريقيا، تسهم بدورها في المراكز والنقاط الحصينة لبلاد المغرب على مستوى مناح مختلفة، وكذا نقل نشاط الجهاد الإسلامي البحري من شرق المتوسط إلى جزئه الغربي، وهو ما مهد لوصول العثمانيين[30]، الذين بدورهم لم نجد لهم جهودا في حركة الكشوف الجغرافية، بحيث كانت أعمالهم في شرق المتوسط تشغل أمر الدولة، حيث الصدام مع منافسيهم من المماليك والصفوين.

26- محمد رفعت بك، التيارات السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، منشورات لجنة البيان العربي، مصر، د.ت، ص42.

27- صلاح الدين أحلي، الأهمية الإستراتيجية للمنطقة المغاربية في المشاريع الاستعمارية مابين القرنين16و19م، المغرب والعالم المتوسطي، الطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، المغرب، 2014، ص100.

28- زهراء النظام، العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط، العثمانيون والعالم المتوسطي، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2003، ص ص58-60.

29- المرجع نفسه، ص65.

30- إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الأولى، العبيكان للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1996، ص67.

كما نجد أن مجيء العثمانيين إلى الجزء الغربي من المتوسط في ظروف وصول البرتغاليين إلى ممر رأس الرجاء الصالح 1498م، وتمكنهم من طريق جديد سيترتب عنه تحويل التجارة مع الشرق عن منافذ العالم الإسلامي، ومنه ضرورة إيجاد العثمانيين لحظوظ تجعلهم يتحاشون الخسائر والمضاعفات الناجمة عن ذلك[31]، وهو ما يبرهنه تحركهم شطر منطقة القوة الأوربية المنافسة والحرص على التمركز في المنطقة المحسوبة على العالم الإسلامي في إطار مشروع الخلافة الإسلامية، فحصل الصدام في نقاط مفصلية اعتبرت من الجانبين مراكز تموقع وسيطرة لخصوصيتها وفاعليتها.

1.5- الجزائر:

رأى العثمانيون في منطقة الشمال الإفريقي قاعدة إستراتيجية مواتية لإحداث التوازن الدولي ولتثبيت وجودهم السياسي والاقتصادي في منطقة المتوسط الغربي، التي أخذت التحركات الأوربية الإيبيرية تعتبرها مجالا للحلول بعد تهاوي دولة المسلمين في الأندلس إضافة إلى واقع الضعف الذي كانت تشهده مع نهاية القرن15م، وقد مثلت الجزائر النواة الأولى للامتداد السياسي الفعلي للدولة العثمانية في هذه المنطقة. لما تحظى به من موقع مركزي بين مضيق صقلية والبوابة الأطلسية على المحيط، ما جعلها منطقة مهمة تسمح موانئها برصد الطرق والتحركات الخاصة بالنقل البحري من الغرب إلى الشرق، من سواحل جنوب اسبانيا إلى سواحل جنوب إيطاليا فهي بذلك معبر لسفن الشرق والغرب[32].

وأما الأسبان فقد شدهم الطمع إلى الجزائر ومدنها الساحلية ذات السواحل والموانئ المثالية، وكانت مدينة المرسى الكبير أول ما مني بالاحتلال من طرفهم، وهي مدينة ساحلية في الجهة الغربية للجزائر؛ بها ميناء وصفه الحسن الوزان قائلا:" ومدينة المرسى الكبير على مسافة بضعة أميال من وهران، ومعنى اسمها الميناء الكبير، إذ لا أعتقد أن له مثيلا في العالم قاطبة، حيث تستطيع مائة سفينة ومركب أن ترسو فيه بكل راحة، في مأمن من كل عاصفة أو أي زوبعة، وكان من عادة سفن البندقية أن تلجأ إليه في حالة هياج البحر وأن ترسل بضائعها إلى وهران بواسطة القوارب، وقد سقطت هذه المدينة بقوة السلاح على بأيدي الأسبان..."[33]. وهو ما أشعر السلطان الزياني مولاي عبد الله بن أبي

31- سعد بدير الحلواني، التاريخ الإفريقي الحديث، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، مصر، 1999، ص68.

32 -Moulay Belhamissi, Marine et marins d'Alger 1518-1830, tome01, Alger,1996- p34.

33- الحسن بن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2005، ص400.

زيان بفقدانه لمدينة حيوية في مملكته ترد عليها وتصدر منها جل البضائع المنتجة في الغرب الجزائري والصحراء، لكنه فقد كذلك مدينة وهران في 1509م[34] رغم جهوده في تسليحها ومحاولة حمايتها من الأسبان والنأي بها عن مصير المرسى الكبير[35].

ولعله من محاسن صدف العثمانيين ما كانت تعيشه الجزائر من واقع الضعف وغياب السلطة السياسية الجامعة مقارنة بجاريتها الشرقية والغربية. الأمر الذي أتاح إحكام وجودهم في الجزائر وهي القاعدة التي أرسوا فيها دعامة قوتهم وأنشؤوا منها دولة حدودية قوية، بإمكانياتها البحرية وأسطولها الذي لعب دورا محوريا وترجيحيا في البحر المتوسط، جعل مصالح التجارة الأوربية مرهونة بدفع الإتاوة اللازمة أو الضريبة المقررة لحكام الإيالة[36]، حتى نجدها طيلة القرن السادس عشر كانت القوة التي لم تستطع القوى المضادة إزالة خطرها، حيث انطلقت منها جهود الإخضاع الداخلية والخارجية وظلت تسهم في تغذية الخزينة العامة لما ظفرته البحرية من غنائم[37].

ولا يمكن إغفال تنامي شعور الأسبان بالقوة والرغبة في السيادة منذ وصولهم إلى العالم الجديد 1492م، وتمكنهم من أول مستعمرة في قارة أمريكا، ثم النجاح في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح 1498م على يد البرتغاليين، إذ لم يكن في طريقهم حينها من منافس أو معرقل لعمليات التوسع والاستكشاف، وبالأخص في الحوض الغربي من البحر المتوسط وأوربا الغربية والجنوبية، لذلك جاء اندفاعهم إلى منطقة الشمال الإفريقي الساحلية لغرض امتلاك الموانئ والأسواق كمجال للعبور، والسيطرة على المراكز القريبة من الحوض الشرقي للمتوسط[38]، والبحث عن الجدّافين وموارد صناعة السفن لتكثيف رحلاتهم إلى مستعمراتهم الجديدة في أمريكا وشحن ما يصلون إليه من خيرات، بدعوى

34- خلافا لمدينة المرسى الكبير التي سقطت بعد حصار دام شهرا ونصف، فإن سقوط وهران يرجعه كثيرون إلى خيانة داخلية ومؤامرة من طرف مندسين أسفرت إلى خسائر بشرية فادحة. أنظر: الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن19م، تحقيق يحيى بوعزيز، الجزء الأول، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، ص ص208-209. وانظر:
Berbrugger, conquête d'Oran, revue africaine, n10, Paris, 1866, pp43-51.

35- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972، ص25.

36- شمس الدين الكيلاني، الإسلام وأوربا في القرن السادس عشر، مرجع سابق، ص ص198-200.

37 - H.-D. DE Grammant ;Histoire d'Alger sous la domination turque1505-1830 ;Paris ;1887,p49.

38- عمر محمد الباروني، الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، ليبيا، 1952، ص ص4-7.

تحصيل المصالح المادية، الأمر الذي دفعهم طيلة نصف قرن من توجيه حملاتهم نحو سواحل إفريقيا للتخفيف من حدة الخطر التركي الذي انحسرت بسببه مصالحهم وهددت تجارتهم في حوض المتوسط[39].

2.5- طرابلس:

لم تستثن طرابلس من الصراع العثماني الأوربي في إطار مساعي الاستحواذ على النفوذ السياسي والاقتصادي لعموم البحر الأبيض المتوسط[40]، وطرابلس هي نقطة بداية المغرب العربي في جزءه الشرقي، كما أنها اعتبرت مركزا لدفع الخطر العثماني الوافد من الشرق بالنسبة للأسبان، ونقطة تمويل لما يميزها من الثروات الوافرة[41]، وسعة العيش التي يتمتع بها سكانها[42].

كما تميزت طرابلس مع مطلع القرن 16م بكونها مدينة تجارية وهي أغنى من تونس وقتها، يتردد عليها تجار العرب والشمال الإفريقي والأتراك وتجار الإمارات الإيطالية الجنوبية ومنها جنوة وصقلية ومالطة، حيث تتحدث المكاتبات التي خصت الملك الكاثوليكي فرديناند سنة 1510م وملوك إيطالية الجنوبية بعد نجاح الأسبان في احتلال المدينة، عن وصف هذا الحدث بالمبهج والنصر المظفر، ومما جاء في رسالة المرشد الأكبر في جزيرة رودس[43]:"طرابلس المدينة العظيمة التي تقع في موقع ملائم لغزوات الأفارقة والعرب، وهي ملجأ للأتراك الذين يغزون الشواطئ المسيحية...وستقع تونس تحت سلطتكم بفضل المسيح"، ويذهب بالقول إلى أهمية طرابلس عن تونس[44].

39- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، الجزء الثاني، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص ص322-327.

40- عبد السلام الحراري، الاهتمام العثماني بليبيا خلال القرن السادس عشر، المجلة العربية للعلوم الاجتماعية، مصر، العدد06- 2014، ص295.

41- الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطبعة الرابعة، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2004، ص279.

42- تروي مصادر تاريخ ليبيا أن أحد الأسباب المباشرة لغزو الأسبان مدينة طرابلس، يرجع إلى ما اكتشفه بعض التجار من الإمارات الإيطالية حينما استضافهم أحد سكان طرابلس، فوجدوا عنده عيشا رغيدا وثراءً لا يوصف، لدرجة أن مضيفهم أخرج حبة ياقوت وأراد تفتيتها في قصعة الطعام الذي قدمه إليهم. أنظر: إبن غلبون الطرابلسي، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، مصر، 1931، ص92. وانظر: حمد بك الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات الفرجاني، ليبيا، د.ت، ص185.

43- يدعى أمريكو دومبواز، بعث بالرسالة إلى الملك أنطونيو دي فراريس؛ المدعو غالاتيو.

44- إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العثماني حتى سنة 1911، ترجمة خليفة التليسي، الطبعة الأولى، الدار العربية للكتاب، مصر، 1991، ص ص174-176.

ومع تولى السلطان سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية عام 1520م عمد إلى شمل طرابلس الغرب باهتماماته الأولية عن طريق تقديم العون والمساعدة لسكان تاجوراء، تلبية لطلب الوفد الذي كان قد التقى مع والده السلطان سليم الأول، كما بادر بإرسال قوة عثمانية بقيادة مراد آغا إلى لتولي أمر تاجوراء[45]، ولمواجهة الأسبان الموجودين في طرابلس، في الوقت الذي شعر فيه الأسبان بتشتت الجهود لانشغالهم بالحرب في فرنسا وألمانيا، وبأهمية طرابلس كمركز مهم لرعاية مصالحهم في شرق ووسط المتوسط الغربي مما دفع بهم إلى تسليم المدينة لفرسان القديس يوحنا عام 1530م[46].

ظلت تاجوراء بقيادة تركية تترصدها أعين الطامعين من سلطان تونس الحفصي وجماعة الفرسان باعتبارهم سلطة وريثة للأسبان، بموجب مرسوم المنح الذي وقعه شارل الخامس في 14مارس1530م، حتى أننا نجد سلطان تونس يصف وضعها في مراسلاته مع حاكم شأنها بقوله:"إن الشوكة في العين تؤلم أكثر من الشوكة في القدم"[47] مبرزا حجم التوجس على مصير عرشه نتيجة الاهتمام العثماني بطرابلس وهي على حدوده الشرقية. إلا أن وضع طرابلس زاد سوء وتراجعت فعاليتها التجارية لدرجة أن الفرسان خيروا التفريط في مالطا وتركيز دورهم عليها، حتى قررت السلطة المركزية العثمانية رصد إمكانيات عسكرية في مستوى انتزاعها من المسيحيين، وترأس المهمة سنان باشا الذي حاصرها ودخلها بعد أيام من القصف واستسلام من فيها في أوت1551م، وتعززت بها مناطق امتداد السيطرة العثمانية في المتوسط الغربي والشمال الإفريقي، في مقابل حالة من الاستياء والإحباط في أوساط الإيطاليين والأسبان[48].

3.5- جزيرة رودس:

45- ساءت أوضاع السكان بسبب السياسة الإسبانية في فرض الضرائب الباهظة على البضائع الواردة من خارج طرابلس عملا على احتكار الحركة التجارية وجلبا للأموال، وهو ما سبب حركة هجرة السكان وتحول التجارة إلى الموانئ الفرعية خارج سيطرة الأسبان، فانهارت المدينة وضعف مركزها التجاري، مما اضطر الأسبان إلى تشجيع الهجرة الاستيطانية إلى طرابلس. أنظر: خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الطبعة الثالثة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1997، ص71.

46- رابحه محمد، دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني، مجلة أبحاث، العدد02، جامعة الموصل، العراق، 2007، ص111.

47- إيتوري روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة خليفة محمد التليسي، الطبعة الثانية، المنشاة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، 1985، ص ص52-64.

48- إيتوري روسي، المرجع السابق، ص ص 77-79.

لم يقتصر الصدام الإستراتيجي بين العثمانيين والأوربيين غربي المتوسط خلال القرن 16م على السواحل الجنوبية أو العربية فقط، إنما شمل أيضا جزرا وسوحل أوربية كثيرة[49]، أهمها جزيرة رودس، والتي ازدادت أهميتها بعد استيلاء العثمانيين على مصر وإخضاع المماليك عام 1517م[50]، وخلق هذا التوسع الجديد في رقعة الدولة واقعا زاد من أهمية الجزيرة وخطورتها في نفس الوقت، باعتبارها طريقا بحريا يربط الأناضول بمصر، ولأنها مركز للقراصنة المسيحيين وما ينجر عن ذلك من تهديد للمصالح ولأمن وسلامة السفن في رحلاتها بالأشخاص والسلع[51]، كما تتعين الإشارة إلى أنه مع فتح العثمانيين مدينة القسطنطينية وافقت كل الجزر المعنية على منح الجزية للدولة العثمانية باستثناء جزيرة رودس. لذلك توجهت حملتان إلى الجزيرة، الأولى عام ألف وأربعمائة وخمسة وخمسين، والثانية في العام ألف وأربعمائة وسبعة وستين، ولم تنجح أي منهما. وبعد عقد الصلح مع البنادقة، اتجه اهتمام الفاتح من جديد نحو رودس، حيث عرض عليهم عقد اتفاقية سلام، مقابل دفع جزية سنوية، ولكن رودس عادت لترفض العرض مبينة أنها تتبع لسلطة الفاتيكان بشكل مباشر، ولا يجوز لدولة مسيحية مستقلة منح جزية للدولة العثمانية، ولكنها وافقت على إرسال الهدايا بدل ذلك كل سنة[52].

بدأ الاستعداد لفتح جزيرة رودس بأمر وإشراف السلطان العثماني سليمان القانوني، نظرا لأهمية ذلك في ضبط التحركات المفترضة، ولكسر شوكة خطر النصارى المتمركزين بها، وهي المركز الحساس الذي يعتبر منفذا عبر المتوسط إلى جزئه الغربي، وانتهج السلطان العثماني في بداية جهود الفتح الخيار السلمي حيث عرض على رئيسها "فيليب دي ليل

49- التميمي، المرجع السابق، ص21.

50- جزيرة يونانية تعد من أشهر وأهم جزر البحر الأبيض المتوسط في جزءه الشرقي، وهي بوابة آسيا الصغرى عبر البحر، وهي مستطيلة الشكل بحيث يبلغ طولها حوالي 77كلم ويختلف عرضها باختلاف شكلها، كما كانت على مدار الحضارات مركزا تجاريا هاما، اتخذتها جماعة الفرسان أو الرهبان موطنا وملجئا لها منذ عام 1309م أيام الإمبراطورية البيزنطية، واتخذوها مركزا لأعمال القرصنة في البحر الأبيض المتوسط. للمزيد أنظر: حبيب غزالة بك، جزيرة رودس"جغرافيتها وتاريخها وآثارها"، مطبعة الاعتماد، مصر، 1929.

51- روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الفكر للنشر والتوزيع، مصر، 1993، ص ص217-218.

52- أحمد شيمشيرغيل، سلطنة بنفوذ عالمي"سلسلة تاريخ بني عثمان"، ترجمة مهتاب محمد، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، ثقافة للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، 2016، ص330.

آدم" إخلائها من الرهبان متعهدا له بعدم التعرض للأموال والأرواح[53]، لكن هذا الأخير حاول المناورة فأوفد مبعوثين إلى السلطان يعرض دفع الجزية دون الحاجة إلى المواجهة، محاولا كسب الوقت لمكاتبة أحلافه في أوربا قصد تعزيزه بالإمدادات، ولم يتم الفتح إلا بعد تنفيذ خطة محكمة من المحاصرة والرصد للقلعة الحصينة وقذفها بالمدافع، وبعد معارك ضارية قادها القائد مصطفى باشا، اقترح دي ليل آدم بعد مشاورة جماعته الاستسلام مقابل سلامة الأرواح والممتلكات، وتم تنفيذ ذلك يوم 25ديسمبر1522م بعد مواقفة السلطان سليمان[54]. وبذلك حققت الدولة العثمانية انتصارا أولويّا يؤمّن حدود الدولة في جهة شرق المتوسط من عدو تقليدي، ويمهد إلى تفرغ السلاطين لتنفيذ خطة التوسع إلى نقاط متقدمة في وسط وغرب المتوسط، وضم إلى حوزتها أحد أهم الممرات البحرية في المتوسط، كما أسس ذلك لنجاح السلطان سليمان القانوني وسمعته في هذه العملية التي تأتي استكمالا لما بدأه محمد الفاتح، في إطار الاستعدادات المهمة لظهور الإمبراطورية العثمانية كقوة بحرية وتنفيذ مشروعها في غربي المتوسط[55].

ولعل أهم ما يؤكد لنا القيمة الاقتصادية لرودس كمركز حساس هي رسالة شارلكان إلى سفيره بانجلترا، يأمره فيها بتبليغ محتواها لنظيره، ومما جاء فيها" :عليك أن توضح لهما[56] مبلغ الخطر الذي يتعرض له العالم المسيحي، والذي نشأ عن سقوط جزيرة رودوس بيد الأتراك هذا العام، ونكاد نعتقد أن الأتراك سيقومون بمهاجمة العالم المسيحي هذا العام، وستكون أرض المعركة في إيطاليا أو في هنغاريا أو البلدين معا، في الوقت ذاته ومن الراجح أن تكون ضربتهم لنا عبر ايطاليا وسينقضّون علينا وعلى ممتلكاتنا في ناحية نابولي وصقلية، وبالتالي سيهاجمون ممتلكات الكنيسة وإمارات الحكام المسيحيين، ولكن أنّى

53- علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، الطبعة الثالثة، منشورات المكتب الإسلامي، لبنان، 1994، ص70.

54- خلف الوذيناني، الفتح العثماني لجزيرة رودس، إصدارات جامعة أم القرى، السعودية، 1997، ص103.

55 -Colin Inber, The Ottoman Empire 1300-1650, The Structure of Power, First Edition, London, 2002, p49.

56- يقصد الملك والكاردينال، وهما هنري و وُلزي، وهي رسالة أرسلت بتاريخ 16أفريل1523م تحمل استعطافا للكنيسة قصد التعبئة، ويتضح من خلال هذه الرسالة موقف شارلكان والبابوية حيال التقدم العثماني الإسلامي في رودس وطرد فرسان القديس يوحنا منها.

هاجم الأتراك العالم المسيحي فإن ذلك من شأنه أن يعرض كرامتنا بصفتنا إمبراطورا وحاميا للكنيسة إلى الامتهان، فضلا عما سنتعرض له من بؤس وشقاء"[57].

وتعبر الرسالة ذاتها عن جزء من الغصة وحجم الأذى الذي لحق بالأوربيين المسيحيين جراء فقدانهم هذه الجزيرة ذات الأهمية البالغة في المواصلات، والتي ظلت لأكثر من قرنين متتالين تحت يد القراصنة المسيحيين، يعترضون ركب الحجاج المسلمين وسفنهم، وغيرها من الأعمال التي جلبت على الأوربيين الأموال والبضائع، فأثّروا من خلالها على قدر من تجارة البحر الأبيض المتوسط.

4.5- تونس:

تعتبر تونس أول نقطة اتصال ونزول للعنصر التركي بمنطقة الشمال الإفريقي، ممثلا في الإخوة بربروس حينما مكنهم سلطانها الحفصي أبو الحسن من جزيرة جربة، كمحطة للإبحار والقيام بنشاطهم لاستهداف السفن والمراكب الأوربية، وعلى رأسها سفن الأسبان باعتبارهم العدو الأول الذي أشهر سيف الانتقام والخصام منذ 1492م[58].

كما ارتبط تاريخ تونس في القرن 16م ارتباطا وثيقا بتاريخ الجزائر ومصيرها، إذ نجد اجتهاد الأتراك منذ وصولهم المنطقة في إحكام مراقبتهم على بوابة الحوض الغربي للمتوسط، حيث واجهوا في ذلك الأسبان الذين كانت لهم المطامع نفسها، فغدت بذلك تونس محل صراع يتجاوزها، ولما كانت أهداف الطرف العثماني من خوض حرب في المتوسط ضد الأسبان هي الحرص على تأمين المنافذ والمراكز الحساسة في طريقه، فإن تونس كانت واحدة من أهم المحطات بعد الجزائر، كقاعدة للعمليات الإضافية ذات الصبغة الحربية والاقتصادية[59]، نظرا لفعاليتها البحرية والتجارية ولكونها تقع في الحزام الضيق للبحر المتوسط وعلى شمالها تقع صقلية ونابولي ومالطا وكلها مراسي خاضعة للمسيحيين، بحيث تمنح للسفن الاسبانية قواعد بحرية وتزودها بالطعام والشراب والخشب وغيرها من المواد، وبالنسبة للطرف الأوروبي المسيحي واهتمامه بتونس، فإن نزول فرسان القديس يوحنا بمالطا وطرابلس يبرهن على أهمية هذا الجزء من الساحل المتوسطي، خاصة مع احتمال طول أمد الحرب بين القوة التركية العثمانية والقوة الاسبانية الهابسبورغية،

57- سعيد أحمد برجاوي، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، 1993، ص106.

58- ذكر خير الدين ذلك بالتفصيل في مذكراته أنظر: خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين، ترجمة وتعليق محمد دراج، الطبعة الأولى، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص46.

59- روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1988، ص96.

فالتمكن من تونس هو إضافة قاعدة هامة للحرب والتوسع، ومنطلق عمليات عثمانيه أخرى صوب جهة الغرب[60].

وكانت تونس قضية مفصلية في منظور السلطان العثماني، حيث نجد أنه تشاور حولها مع خير الدين عندما استدعاه سنة 1532م، نظرا لأهميتها وحرصا على أن تشملها الإستراتيجية العثمانية في منطقة الشمال الإفريقي فموقعها الجغرافي وتوسطها لأيالتين عثمانيتين يلح على ذلك، ، زيادة على ما تسمح به موانئها من التحكم في المواصلات البحرية عبر المتوسط، كلها عوامل تضافرت في إضفاء الأهمية البالغة لتونس كمحطة متوسطية[61].

ولأنه لم يكن في وسع أي من الطرفين التفريط في تونس وهي نقطة ارتكاز[62] مؤثرة في التحركات البحرية، فإن سجال المواجهة عليها ظل قائما ولم تحسم فيها السيطرة بسرعة، حيث استولى خير الدين على تونس سنة 1534م وهو ما حُسب تهديدا مباشرا للبابوية والأمراء في إيطاليا ولمصالحهم في البحر[63]، لكن سرعان ما استردها شارلكان منه في 1535 وبنى قلعة حلق الوادي، غير أنه في 1541م، وفيما كان العثمانيون يغزون المجر لم يستطع الأسبان الوقوف على جبهتين مما جعلهم ينهزمون أمام الأتراك في بجاية 1555م، كما حصل الأتراك على وهران سنة 1556م واستولى القرصان دراجو على طرابلس وبعد معاهدة 1559 وفشل الأسبان في أوروبا واقتربت البحرية بين القوتين في حوض المتوسط، وفي 1560 قام الأسبان بحملة على جزيرة جربة وحاصر الأتراك على جزيرة مالطا 1565[64]، ومع بدأ عهدة علج علي[65] بايلربايا على الجزائر اهتم هو الآخر لأمر تونس غير أن انشغاله بمواجهة الحلف المسيحي عقب الوصول العثماني إلى قبرص ومعركة

60- جون بول وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص45.

61- عيسى الحسن، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية حتى نهاية الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص517.

62- نجد وصفا مسهبا لأهمية تونس وسواحلها البحرية وتحصيناتها فيما أورده صاحب كتاب المؤنس، وقد خص الباب الأول كاملا لذلك. أنظر: إبن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة الثالثة، دار المسيرة، لبنان، 1993، ص 17-27.

63- شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص330.

64- علي تابليت، الجزائر في القرن السادس عشر، مجله بحوث، جامعة الجزائر، العدد الخامس، 1998، ص 344.

65- للمزيد حول جهود علج علي في تونس وأثر نشاطه على البحرية الإسبانية- أنظر: محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علج علي، دار الأمل، الجزائر، 2009، ص109-148.

ليبانت 1571م بعدها، عرقل جهوده حتى الحملة الناجحة في 1574م التي انتهت بتحصيل تونس تحت حكم الدولة العثمانية[66].

5.5.المغرب:

من المعلوم أن المغرب الأقصى وهو الجزء الغربي من بلاد المغرب العربي ونهاية حدوده المتوسطية على سواحل المحيط الأطلسي لم يبق بمنأى عن التفاعلات الإقليمية والدولية الحاصلة خلال القرن 16م، وأخذت تتوجه إليه الأطماع في سياق التحولات الحاصلة في مجال التجارة البحرية، لما أثمرته الجهود الإيبيرية في الانتقال من التجارة المتوسطية إلى التجارة المحيطية وبداية ظهور التجارة الدولية، وكان المغرب الأقصى لجغرافيته ومحورية سواحله محطة تنافسية هو الآخر[67].

ولما كان المغرب يمثل أقرب نقطة من الشمال الإفريقي إلى أوربا الغربية، وما يملكه من سواحل طويلة على المحيط الأطلسي الذي بدأ يحفل بروح التجارة، فقد اتجهت إليه أطماع الأسبان والبرتغاليين مع ظروف الضعف التي سادت سلطته المركزية في فاس، حيث سمحت هذه الظروف بالتحرك لاحتلال بعض المراكز كان أولها مدينة سبتة الساحلية التي أخذها البرتغاليون منذ عام1415م، سعيا إلى الحصول على مضيق جبل طارق[68]، كممر استراتيجي أخذت حركة مرور السلع والبشر والأساطيل عبره تشهد كثافة متنامية، ومعبر بحري ثنائي على المتوسط والأطلسي زادت رغبة بلوغه وملكيته لبناء القلاع والحصون والمخازن ولاتخاذه نقطة رقابة متقدمة بين القارتين[69]. وتجدر هنا الإشارة إلى أن المتوسط كبحر داخلي قد أفاد كثيرا من المحيط الأطلسي وبالأخص في قسمه الغربي[70]، حيث ازدهرت التجارة وتنوعت المواد التي جلبها الإيبيريون من مستعمراتهم

66- يحيى بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830م، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص53.

67- محمد المهناوي، المغاربة والبحر خلال القرن السادس عشر، أعمال ندوة البحر في تاريخ المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، المغرب، 1996، ص32.

68- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الطبعة الثالثة، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006، ص ص5- 6.

69- عبد الحي بنيس- مضيق جبل طارق في الإستراتيجية العسكرية الإيبيرية أثناء المواجهة مع المغرب في القرن16م، أعمال ندوة دور مضيق جبل طارق في علاقات المغرب الدولية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، 2001، ص108.

70-Fernand Braudel, the Mediterranean and the world Mediterranean in the age of Philip II, V01, translate by Sian Reynolds, 1963- p224-226.

في أمريكا[71]، كما يعزى تركيز البرتغاليين على سواحل المغرب لارتباط اقتصاد غينيا عندهم والسواحل الإفريقية الغربية بمراكش لوجيستيكيا، متخذين منها مركزا للتزود بالقمح والخيل، وقد كانوا هم والأسبان على قناعة بأن المغرب يزخر بمناجم الذهب لكثرة تداوله في الموانئ[72].

تفاقمت الأطماع الأوربية البرتغالية على المغرب الأقصى طيلة القرن16م وزادها مزاحمة الأسبان، مع تطلع الطرف العثماني إلى استكمال نفوذه في كامل الشمال الإفريقي، وبرغم هذا التهافت مضت إدارة شؤون البلاد من السلطة الداخلية مع ما كان من مشاكل الحكم وصراعاته، فانفرد هذا الجزء من بلاد المغرب بمصير مختلف عن غيره[73]، لكن السعديين رغم تلك المحن استطاعوا التصدي لتلك الأطراف كلها خاصة بعد قضائهم على الوطاسيين[74].

وليس في مقابل إيرادنا لهذه المراكز كبؤر صدام أن غيرها من المناطق كانت أهميتها ملغاة، بل ظلت كل منطقة المتوسط الغربي من الضفتين أهميتها قائمة في ما بذله كل طرف للحصول عليها، إنما يمكن القول أن قيمتها زادت بالنظر إلى طول مدة الصراع وشمولها لجميع هذا الفضاء، لكن نجد التفاوت بينها، ذلك أن السيطرة على بعضها كان بالضروري نقطة متقدمة لبلوغ الأخرى.

الخاتمة:

من خلال ما تم التعريج عليه والتطرق إليه في هذه الدراسة نخلص إلى مجموعة من الاستنتاجات:

-أولا: التأكيد على أهمية الجزء الغربي من حوض المتوسط كمجال استراتيجي تنافسي انتقل إليه الصراع الدولي في أوجه مختلفة، كان الوجه الاقتصادي فيه محركا بارزا في ظل اتساع رقعة التجارة الدولية نتيجة بروز طرق عالمية جديدة، علاوة عن الحاجة إلى المواد

71- يطرح المؤرخ فرناند بروديل صاحب هذه الدراسة " المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني" مقاربة تختلف عن ما ذهب إليه غيره من المختصين، حيث يرى أن اكتشاف الطرق الجديدة المؤدية للعالم الجديد وشبه القارة الهندية خلال القرن16م، لم تقع على حوض المتوسط بالضرر بقدر ما عادت عليه بالمنفعة، حيث انتعش جزءه الغربي ونشطت حركة السلع وتنوعت البضائع وكانت له حصة من هذه الخيرات.

72- صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو، مصر، 1993، ص13.

73- محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 1999، ص12.

74- المرجع نفسه، ص ص40-41.

الأولية سيما تلك التي لها صلة بطبيعة الصراع البحري ومتطلبات بناء الأساطيل مع تعاظم دورها، في تنفيذ الخطط السياسية والاقتصادية والهيمنة على حركة النقل والإمداد.

-ثانيا: حتى نهاية العقد الثامن من القرن 16م ظلت وقائع وحيثيات الصدام تخضع إلى الغلبة البحرية العسكرية في حسم السيطرة على المراكز والمناطق ذات الفاعلية التجارية والقيمة الاقتصادية على طول السواحل، ذلك أن البحرية وبناء الأسطول مثلت حاجة ملحة وجب تحصيلها، فكان الطرف الأوربي بزعامة الإسبان كلما ضعفت مقدراته العسكرية لتشتت الجهود أو تعدد الجبهات المناوئة انتقل لأسباب براغماتية إلى تكثيف حرصه على مناطق أخرى أهم في تقديره، في حين كان الطرف العثماني وربما لعامل التجانس الذي ميز مناطق نفوذه على طول الشمال الإفريقي، أقل ضررا وأكثر إفادة من وصول حدود دولته إلى هذه المناطق، فزادت حظوظه الاقتصادية وبرز تأثيره على الطرف المنافس، لذلك نجد الاتجاه إلى سياسة المهادنة والتحالفات تحقيقا للمصلحة، وظهر ذلك منذ بداية الامتيازات العثمانية الممنوحة لصالح الفرنسيين1535م، ما أثر على الجبهة الأوربية وأدى إلى ضعفها بعد معركة ليبانت ومعركة وادي المخازن، الأمر الذي مهد إلى بروز قوى منافسة داخل الطرف الأوربي نفسه ومن ثمة الخوض في صدام من نوع آخر بحيث تصبح العلاقات الخارجية والدبلوماسية أحد وسائل إدارته، لكون المصالح الأوربية توسعت هي الأخرى إلى خارج المتوسط وانهمك الأسبان والبرتغاليون في مكاسبهم الكائنة بالعالم الجديد وآسيا.

-ثالثا: لازالت الدراسات التي تناولت القرن السادس عشر في المتوسط الغربي ترجع دواعي الصدام إلى أبعاد متعددة، درستها في سياقها العام، ولا نجد الكثير مما يعني الجانب الاقتصادي بالدراسة المتخصصة المستفيضة، ومعظمها تناول هذا الجانب من باب عمليات القرصنة كنشاط بحري غير منظم في إطار اللّصوصية والتعرض للمُؤن والبشر استهدافا للافتداء والجزية، واستنزافا لقوة العدو، أو في إطار الفعل التوسعي الممهد للحركة الاستعمارية، ووُصف في بعض الأحيان برد الفعل المبرر في سياق غياب قوة واحدة تفرض نظم العمليات البحرية التجارية في هذا المجال.

قائمة المراجع:

أ- **العربية**

- إبن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، لبنان: دار المسيرة، ط 2، 1993.
- حبيب غزالة بك، جزيرة رودس" جغرافيتها وتاريخها وآثارها"، مصر: مطبعة الاعتماد، 1929.
- محمد سي يوسف، أمير أمراء البحر علج على، الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر، 2009.
- إبن غلبون الطرابلسي، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، مصر: 1931.

- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الجزائر: وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2010..
- أحمد شيمشيرغيل، سلطنة بنفوذ عالمي"سلسلة تاريخ بني عثمان"، ترجمة مهتاب محمد، ج 2، الإمارات العربية: ثقافة للنشر والتوزيع، ط 1، 2016.
- إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط 1، السعودية: الرياض، العبيكان للنشر والتوزيع، 1996.
- الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن19م، تحقيق يحيى بوعزيز، ج 1، الجزائر: عالم المعرفة، طبعة خاصة، 2009، .
- الحسن بن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان حميدة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005.
- الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لبنان: دار المدار الإسلامي، ط 4، 2004.
- إيتوري روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة خليفة محمد التليسي، ليبيا: المنشاة العامة للنشر والتوزيع، ط 2، 1985.
- إيتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة خليفة محمد التليسي، مصر: الدار العربية للكتاب، ط 2، 1991.
- جون جوليوس نورويش، الأبيض المتوسط تاريخ بحر ليس كمثله بحر، ترجمة طلعت الشايب، مصر: المركز القومي للترجمة، ط 1، 2015.
- حسين مؤنس، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، مصر: مطابع حجازي، ط 2، 1938.
- حمد بك الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ليبيا: منشورات الفرجاني، د.ت.
- خلف الوذيناني، الفتح العثماني لجزيرة رودس، السعودية: إصدارات جامعة أم القرى، 1997.
- خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ليبيا: الدار العربية للكتاب، ط 3، 1997.
- رابحه محمد، دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني، العراق: جامعة الموصل، مجلة أبحاث، العدد02، 2007.
- روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، ج 2، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1988.
- روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج 1، مصر: دار الفكر للنشر والتوزيع، ط 1، 1993.
- زهراء النظام، العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط، العثمانيون والعالم المتوسطي، الدار البيضاء: ، مطبعة النجاح، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 1، 2003.
- سعد بدير الحلواني، التاريخ الإفريقي الحديث، مصر: دار الكتب المصرية، ط 1، 1999.
- سعيد أحمد برجاوي، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، لبنان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1993.
- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، ج 2، تونس: الدار التونسية للنشر، 1978.

- شمس الدين الكيلاني، الإسلام وأوربا في القرن السادس عشر"الحرب والتجارة، لبنان: مجلة الاجتهاد، العدد36، 1997.

- شوقي الجمل، هرمز والصراع الإسلامي الصليبي في بداية القرن السادس عشر، البحرين: مجلة الوثيقة، العدد27، 1995.
- صلاح الدين أحلي، الأهمية الإستراتيجية للمنطقة المغاربية في المشاريع الاستعمارية مابين القرنين16و19م، المغرب والعالم المتوسطي، المغرب: مطبعة الأمنية، ط 1، 2014.
- صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، مصر: مكتبة الأنجلو، ط 6، 1993.
- عبد الجليل التميمي، العثمانيون والبحر الأبيض المتوسط، العثمانيون والعالم المتوسطي، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح، ط 1، 2003.
- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش، 1972.
- عبد الحي بنيس، مضيق جبل طارق في الإستراتيجية العسكرية الأيبيرية أثناء المواجهة مع المغرب في القرن16م، المغرب: أعمال ندوة دور مضيق جبل طارق في علاقات المغرب الدولية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2001.
- عبد السلام الحراري، الاهتمام العثماني بليبيا خلال القرن السادس عشر، مصر: المجلة العربية للعلوم الاجتماعية، العدد06، 2014.
- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط: منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، ط 2، 2006.
- علي تابليت، الجزائر في القرن السادس عشر، الجزائر: جامعة الجزائر، مجلة بحوث، العدد 5، 1998.
- علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، لبنان: منشورات المكتب الإسلامي، ط 3، 1994.
- عمر محمد الباروني، الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، ليبيا: مطبعة ماجي، 1952.
- عيسى الحسن، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية حتى نهاية الدولة العثمانية، الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع، ط 1، 2008.
- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، مصر: دار المعرفة الجامعة، 2000.
- فاروق عثمان أباظة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، مصر: دار المعارف، ط 2، 1994.
- فرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، مرجع سابق.
- كات فيليت، التجارة بين أوروبا والبلدان الإسلامية في ظل الدولة العثمانية، ترجمة أيمن الأرمانزي، السعودية: العبيكان للنشر والتوزيع، ط 1، 2004.
- مانويل فاسكيث، تصورات البحر الأبيض المتوسط "المتوسط الإسباني"، لبنان: منشورات تلاسا، 2003.
- مجلة البحوث الاجتماعية والإنسانة، جامعة القدس المفتوحة، العدد 51، ديسمبر 2019.

- مجهول، تاريخ ملوك القسطنطينية، تحقيق طارق منصور، مصر: ط 1، 2008.

- محمد المهناوي، المغاربة والبحر خلال القرن السادس عشر، المغرب: أعمال ندوة البحر في تاريخ المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، 1996.
- محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، سوريا: منشورات جامعة دمشق، 1999.
- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512 -1543، ط 1، الجزائر: دار الأصالة للنشر والتوزيع، 2012.
- محمد رفعت بك، التيارات السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مصر: منشورات لجنة البيان العربي، د.ت.
- محمد عبيد بطي، الصراع العثماني البرتغالي في القرن السادس عشر، الإمارات العربية المتحدة: مركز الدراسات والوثائق، ط 2، 2013.
- مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، الجزائر: دار الأصالة، ط1، 2010.
- مصطفى أبو لقمة والهادي الأعور، الجغرافيا البحرية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1999.ص43.
- مفيد صالح باشا، تاريخ البحر وملاحمه، ج 1، سوريا: دار طلاس للنشر والتوزيع، ط 1، 1990.
محمود شاكر، الكشوف الجغرافية دوافعها وحقيقتها، لبنان: منشورات المكتب الإسلامي، ط 1، 1973.
- نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.
- وجيه كوثراني، تكوُّن الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي في العصر الحديث، موسوعة تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب، المجمع الإسلامي للتقريب بين المذاهب، إيران: ط 1، 2010.
- ولي شيرين، تاريخ أوربا السياسي والثقافي بخطوطه العريضة، ترجمة نبيل أبو منشار، لبنان: د.ت.
- يحيى بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830م، الجزائر: وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، 2010.
- يحيى بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830م، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009.
محمد مصطفى بازامه، ليبيا في عشرين سنة من حكم الأسبان 1510-1530م، ليبيا: الفرجاني للنشر، 1965.

ب- الأجنبية:

- Berbrugger, conquête d'Oran, revue africaine, n10, Paris, 1866.
- Colin Inber, The Ottoman Empire, 1300-1650, The Structure of Power, First Edition, London, 2002.
- Fernand Braudel, the Mediterranean and the world Mediterranean in the age of Philip II, V01, translate by Sian Reynolds, 1963.
- H.-D. DE Grammant, Histoire d'Alger sous la domination turque1505-1830, Paris, 1887.
- Moulay Belhamissi, Marine et marins d'Alger 1518-1830, tome01, Alger,1996.